الحمى والحنين.. والشعر والهذيان

وصلت عائشة فكان حوارها معهم حنيناً وشعراً وهذياناً.. عائشة رضي الله عنها تحكي ما جرى في تلك الزيارة فتقول: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه، فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال - مولىا أبي بكر - في بيت واحد فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم - وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب - وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبت؟ فقال:

كل امرئ مصبح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ... إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه ... كالثور يحمي جلده بروقه

فقلت: والله ما يدري ما يقول. وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بفخ وحولي إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مِجنةً ... وهل يبدون لي شامة وطفيل)[1]

كان بلال يحترق من الحمى لكنه أشد احتراقاً بشوقه المستعر إلى مكة.. إلى سوق مجنة في أسفل مكة، وإلى جبلي شامة وطفيل، اللذين يطلان كالحب على ذلك السوق. كان يحن إلى مراتع الصبا بين تلك النبتات.. بين الإذخر والجليل، ثم يزفر بأنفاسه الملتهبة بالحمى فيقول والحسرة في صدره: (اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا إلى أرض الوباء)[2].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، وقدر واه البخاري ٢٦٦٧.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٦٦٧.

تأثر النبي ﷺ بهذا الشـــوق والحنين، وأخذته الشـــفقة بأصحابه، وبالمدينة التي تسكن قلبه.. عندما سمع شكوى حبيبته عائشة التي تقول: (ذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقـــال ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشـــد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة[1]»[2].

وفي ليلة من تلك الليالي المحمومة.. كان ﷺ في فراشه وعيناه نائمتان.. في تلك الليلة رأى شـــيئاً مخيفاً ومفرحاً في منامه، فبشـــر به أصحابه وبشر به المدينة وقال: (رأيت امرأة ســـوداء ثائـــرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلـــت مهيعة، فأولتها: أن وبـــاء المدينة نقل إلى مهيعة، وهي الجحفة)[3] وارتحل الوباء، وارتحلت الحمى عن أبي بكر وبلال، وعن عامر بن فهيرة، ليعودوا حول رسول الله ﷺ مع المهاجرين والأنصار، ويكحل عينيه بهم، لكن تلك المجالس الطيبة تفتقد إلى أحد عظماء الأنصار. ورســـول الله ﷺ لا يعيش في أبراج بعيداً عن أصحابه.. إنه منهم وبينهم.. يصافحهم ويبتســـم في وجوههم.. يمشـــي في أسواقهم، ويأكل من طعامهم، ويزورهم في منازلهم، ويسأل عن غائبهم، ويتفقد أحوالهم.

يقـــول أحد الصحابة رضي الله عنه: (كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر مـــن الصحابة، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره فيقعده، بين يديه فقال له النبي ﷺ: «تحبه؟»

فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه.

فهلـــك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ فقال: «ما لي لا أرى فلاناً»؟ فقالوا: يا رسول الله، بنيه الذي رأيته هلك.

فلقيه النبي ﷺ فســـأله عن بنيه، فأخبره بأنه هلك، فعزاه عليه ثم قال ﷺ: «يا فلان أيما كان أحب إليك: أن تمتع به عمرك، أو لا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة

---

(١) الجحفة.

(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق وهو حسن.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٥٦٨.

إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك؟» قال: يانبي الله، بل يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي، لهو أحب إلي.

قال ﷺ: «فذاك لك». فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أله خاصة أو لكلنا؟ قال ﷺ: بل لكلكم)[1].

ما أجمل الحب والبراءة في هذه القصة.. ما أجمل العزاء النبوي.. ما أجمل الطفولة في مجلس النبي ﷺ، وما أجمل هذا النبي وهو يسأل الرجل عن حبه، وما أروعه وهو يحرضه على البوح بشيء من أعماقه، وهو يعزيه، وهو يعده بعينين بريئتين تتلهفان له عند باب الجنة.

هذه البشرى ليست للرجال فقط، وهذه العناية ليست للرجال فقط. يحدثنا صحابي آخر فيقول: (كان ﷺ يتعهد الأنصار، ويعودهم، ويسأل عنهم، فبلغه عن امرأة من الأنصار مات ابنها وليس لها غيره، وأنها جزعت عليه جزعاً شديداً، فأتاها النبي ﷺ ومعه أصحابه، فلما بلغ باب المرأة، قيل للمرأة: إن نبي الله يريد أن يدخل: يعزيها. فدخل رسول الله ﷺ فقال: «أما إنه بلغني أنك جزعت على ابنك، فأمرها بتقوى الله وبالصبر»، فقالت: يا رسول الله، ما لي لا أجزع وإني امرأة رقوب لا ألد، ولم يكن لي غيره؟ فقال رسول الله ﷺ: «الرقوب: الذي يبقى ولدها». ثم قال: «ما من امرئ أو امرأة مسلمة يموت لها ثلاثة أولاد يحتسبهم إلا أدخله الله بهم الجنة»، فقال عمر وهو عن يمين النبي ﷺ: بأبي أنت وأمي، واثنين؟ قال ﷺ: «واثنين»)[2].

إذاً فالنبي ﷺ (كان يتعهد الأنصار، ويعودهم ويسأل عنهم)[3].. كان يتفقدهم رجالاً ونساءً.. أغنياء وفقراء.. كان يفرح معهم، ويواسيهم في مصائبهم وأحزانهم.. كان يخفف عنهم بعض أعباء الحياة وهمومها.

هاهو يتهيأ للخروج من منزله ليعود مريضاً، وهذه المرة لم يكن المريض رجلاً عادياً. إنه أحد كبار الأنصار وأبطالهم، فقد سمع ﷺ بأن (سعد بن عبادة) طريح

---

(١) سنده صحيح. رواه الطبراني ١٩-٣١ وغيره من طرق عن معاوية بن قرة عن أبيه، ومعاوية ثقة التقريب ٥٣٩ ووالده صحابي وصححه الإمام الألباني في الجنائز (١٦٢).

(٢) سنده على شرط مسلم كما قال الإمام الألباني في الجنائز ١٦٤ رواه الحاكم ١-٥٤٠.

(٣) سنده حسن على شرط مسلم وهو الحديث السابق.

الفراش، فتحركت مشـــاعره نحـــو أخيه وحبيبه، وتحركت دابتـــه نحو هذا الأنصاري الكريم.

دعونا نمشي خلف رسول الله ﷺ فسوف يصادف في طريقه.

شجرةٌ غريبةٌ

رآها ﷺ في المدينة.. نبتة مشـــوهة تظهر لأول مرة.. أثارها غبار دابة رسول الله ﷺ المتجهة تحمل حباً نحو ســـعد بن عبادة.. أثارها ذلـــك الغبار، فاهتزت وتطايرت أشواكها، فجرحت مشاعر رسول الله ﷺ.

ما هذه الشجرة، وهل وصل ﷺ إلى بيت سعد بن عبادة..؟

لا أحد يستطيع وصف ما حدث مثل الطفل الأسمر أسامة بن زيد، حبيب رسول الله ﷺ، فقد كان يركب خلف رســـول الله ﷺ فوق تلك الدابة.. هاهو أســـامة يحدثنا فيقول: (إن رســـول اللـــه ﷺ ركب حماراً عليه إكاف[1] علـــى قطيفة فدكية[2]، وأردف أســـامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن ســـلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي، فإذا بالمجلس أخلاط من المسلمين ومن المشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة[3]، خمَّر[4] ابن أبي أنفه بردائه ثم قال: لا تغبروا علينا.

فســـلم رســـول الله ﷺ، ثم وقف فنـــزل فدعاهم إلى الله عز وجـــل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا. ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رســـول الله، فاغشـــنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك.

---

(١) سرج الحمار.
(٢) نسبة إلى فدك وهي بلدة قريبة من المدينة المنورة.
(٣) غبارها.
(٤) غطى.

واستب المسلمون والمشـــركون واليهود، حتى كادوا يتثاورون[1]، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا.

ثم ركب رســـول الله ﷺ دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له رسول الله ﷺ: «أيا ســـعد، ألم تســـمع ما قـــال أبو حباب - يريد عبد الله بـــن أبي؟» قال: كذا.. وكذا.

قال ســـعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة[2] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة[3]، فلما رد الله بالحق الذي أعطاك شـــرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت.

فعفا عنه رســـول الله ﷺ، وكان وأصحابه يعفون عن المشـــركين وأهل الكتاب كما أمـــره الله عز وجل، ويصبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[4].

وقال عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

وكان رســـول اللـــه ﷺ يتأول في العفو مـــا أمره الله عز وجل بـــه..)[6]، لأنه ظل وارف للجميع.. حتى لهؤلاء المشركين واليهود، ولولا ذلك لما تجرأ أحد منهم حتى على الهمس، وفي هذا الظل المتاح للجميع تحول (ابن سلول) إلى كهفٍ للأصنام والمشركين، وجحر لليهود.. لقد تحول إلى كهفٍ لمشـــروعٍ يحـــاك في الظلام، لتقويض هذه الدولة الجديدة.

---

(١) يتواثبون للقتال.

(٢) أي القرية أي المدينة المنورة.

(٣) أي يجعلوه زعيماً للأوس والخزرج.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة.

(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٦٦.

عبد الله بن أبي لم يتأذَ من غبار الدابة، ولم يخمر أنفه من أجل سلامة رئتيه، فهو ليس غريباً على الغبار، والغبار ليس بغريب عليه. لكنه خمر عقله وقلبه عن الحقيقة.. هو يضيق براكب الدابة، وبكل ما يفعله ويقوله. إنه يقرأ هزيمته في كل سعادة أدخلها نبي الله ﷺ على كل بيت.. إنه يرى نكسته في فرح الرجال والنساء، وابتسامات الأطفال وهم يلتصقون برسول الله ﷺ.

لا أدري ما مصير المدينة لو توج عبد الله بن أبي بن سلول أميراً عليها، وإلى أي قاع سوف يرسو بها؟ لكن من المؤكد أنها لن تكون المدينة المنورة التي تهفوا إليها الدنيا، بل ستظل يثرب.

إن زعامة عبد الله بن أبي ليست - في حالة نجاحها - سوى تأجيل لوقت انفجار قنبلة موقوتة، فالجاهلية هي الجاهلية، والثأر لا يطفئه سوى الثأر، ما دامت الأصنام رابضة في البيوت والأندية.

عبد الله بن أُبي بن سلول المشرك ضاق بهؤلاء الأضياف المهاجرين، وطار صوابه لهذا الكرم الأنصاري. لقد فقد صداقاته وزعامته، فقومه يحبون المهاجرين أكثر مما يحبونه، ويتماهون بهم وينفصلون عنه.. إنهم يلتقون في ذلك المسجد خمس مرات في اليوم. كيف ذلك؟ أليس من سبيل إلى استعادة أحد منهم؟ أو استعادة شيءٍ منهم؟ أليس من سبيل إلى إعادة هؤلاء المهاجرين وطردهم مع نبيهم من المدينة؟ أليس من سبيل إلى تشريدهم خلف جبال المدينة؟

المدينة تجيب.. تقول: لا يا ابن أبي بن سلول.. ليس هناك من سبيل، فلقد تغيّر أصحابك.. غيّرهم نبي الله، وغيّر نفوسهم، وغيّر بلدتك وغيّر اسمها، وإن لم تكن تحتمل هذا التغيير وهذا الحب الذي تكرهه، فاذهب إلى دار أنس بن مالك لتنظر مايفعله نبي الله ﷺ هناك.. ومايفعل معه المهاجرون والأنصار. اذهب إلى دار أنس بن مالك فهناك أمرٌ خطير لا أظنك سوف تحتمله.

ماذا يحدث في دار أنس

نبي الله ﷺ الآن في دار أنس، والمهاجرون والأنصار من حوله يتطلعون إليه.. ينتظرون كلماته والحماس يقفز في جوانحهم.. يتطلعون إلى هديةٍ للجميع.

هاهو أنس بن مالك بين المهاجرين والأنصار.. سألناه: ما الذي يحدث في داركم يا أنس؟ أخبرنا.

أجاب أنس إجابة كالعيد فقال: (حالف النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا)[1] يا الله.. ما أروعه من خبر.. هنيئاً للدنيا.. هنيئاً لك يا أنس، وهنيئاً لداركم.

هاهم الصحابة يخرجون من الدار، وقد صاروا أخوة.. فوق أخوة الإسلام، فالمسلم أخو المسلم، لكن ميزة الأخوة في دار أنس أنها لم تحدث من قبل، ولن تحدث من بعد.

إنها غيمة وحي.. أمطرتهم حباً ثم ارتحلت، ولم تمطر أحداً سواهم.. هاهي الغيمة بين شفتي أحد الصحابة، وهو يحدثنا عنها فيقول: (كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم)[2].

لقد آخى ﷺ بين صحابته، فماهت الأرواح بالأرواح.. هاهو أبو عبيدة يمسك بيد أخيه. نسأل أنساً مرة أخرى؟ فيجيب أن رسول الله ﷺ قد (آخى بين أبي عبيدة بن الجراح، وبين أبي طلحة)[3].

ونسأل أنساً مرة ثالثة: من هذا الذي يلح ويلح على عبد الرحمن ابن عوف؟

فيقول رضي الله عنه: (إن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد: أي أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها.

فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق.

فدلوه، فذهب، فاشترى وباع فربح، فجاء بشيء من أقط وسمن. ثم لبث ما شاء الله أن يلبث، فجاء وعليه ودع زعفران، فقال رسول الله ﷺ: «مهيم؟» فقال: يا رسول الله تزوجت امرأة.

قال ﷺ: «ما أصدقتها؟» قال: وزن نواة من ذهب.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري وأحمد واللفظ لأحمد (٣/١١١).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٥٨٠.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-١٩٦٠ (مؤاخاة النبي ﷺ بين أصحابه).

قال ﷺ: أَوْلِمْ ولو شاة. قال عبد الرحمن: فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً، لرجوت أن أصيب ذهباً وفضة)[1].

إن أخوة النسب تركض وتركض، وتلهث وتتعب فلا تستطيع الإمساك بما أمسكت به أخوة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع. لقد حولت دار أنسٍ سعد بن الربيع ربيعاً يتقلب فيه عبد الرحمن بن عوف.. ربيعاً أنصارياً.. يتنقل فيه عبد الرحمن ويسافر فلا يجد له حدوداً.. يبحث عن أطرافه، فلا يرى سوى الربيع أينما حل.. أينما اتجه. وعندما يحاصره هذا الكرم يتوجه بقلبه المتيم المأخوذ إلى رسول الله ﷺ.. يشتكي من هذا الحب، ومن هذا الكرم.. يتوجه هو والمهاجرون، ويقول هو و (المهاجرون: يا رسول الله: يارسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير. لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله؟

قال ﷺ: «لا.. ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم»[2].

يحق للمهاجرين أن يشتكوا، ويحق لهم أن يحتاروا، فلقد تساءلت الدنيا: من لهؤلاء الهاربين الهائمين المشردين؟ من ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3].

فأجابت طيبة، وأجابت الأنصار، وتسابقت الأيدي إلى أحبابها المهاجرين، وأشرعت الأبواب.

لم يكن هناك ازدحام من المهاجرين على أبواب إخوانهم الأنصار، لكن كان هناك ازدحام بين القلوب الأنصارية على أحبابهم المهاجرين. كانت الأنصار أمواجاً من الرحمة.. تغمر إخوانهم المهاجرين وتنعشهم، بعد طول مسير وطول حرمان وعذاب، حتى بلغ الحب أن (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد ٣-٢٧١ حدثنا عفان حدثنا حماد حدثنا ثابت وحميد عن أنس. عفان وحماد وحميد ثقات أثبات مروا معنا. وهو للبخاري دون آخر الحديث (٥٠٧٢).

(٢) سنده ثلاثي صحيح. رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا حميد عن أنس، يزيد بن هارون بن زاذان ثقة متقن عابد، وشيخه حميد ابن أبي حميد الطويل تابعي ثقة سمع من أنس.

(٣) سورة الحشر: الآية ٨.

(٤) البخاري ٢٦٢٥ ومعنى اقترعت أي قاموا بإجراء القرعة لشدة تنافسهم على إكرامهم.

أي طوفـــان من الحب هذا؟! كانت أيدي الطواغيت في مكة تتخطفهم بالســـياط واللكمات، وكانت ألســـنتهم تعكر كل صباحاتهم، وهذه هي الأيدي الأنصارية المتوضئة تمســـح آثار السياط وتمســـح الدموع والجراح، وتحمل هؤلاء الغرباء إلى حيث الرحب والســـعة.. كان الفقراء من الأنصار أســـرع من الأغنياء.. ينافسونهم، ويطلبون القرعة أيضاً، فالحب والكرم في قاموس الأنصار ليس حكراً على أحد، والصدور أفســـح من المنازل، والكلمات ألذ من أطايب الطعام، والشـــهادة تنزل من فوق سبع سماوات شرفاً للأنصار يفخرون وأبناؤهم بحمله.. الشـــهادة لهم لم تأت من بيت شعر مدفوع الثمن، أو خطبـــة مـــن فصيح يبتغي بها قربى.. الشـــهادة جاءت من الكـــريم الذي يعطي ولا يعطى.. من أكرم الأكرمـــين.. من خالق الكرماء، ومعطي الأغنياء والملوك.. آيات تتلى إلى يوم القيامة ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو [1] ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]

المرء يُمدح إذا كان كريماً، ويُمدح أكثر إن كان يقدم للآخرين كل ما عنده، لكن أن يكون محتاجاً أشـــد الحاجة فيقدم للآخرين حاجته الملحة، فذلك كرم انتزعه الأنصار وحدهم، وهذا أحدهم.. يشهد له الله.. يشهد له سراجه. وهذه امرأة أنصارية سخية يشهد لها الله، ويشهد لها سراجها.. في ليلة جاع رسول الله ﷺ فيها، وجاعت عائشة وجاعت ســـودة، ولم يكن في تلك الحجرات الكريمة ســـوى قطرات من الماء.. تعكس لمعان النجوم وكرم الأنصار مع ذلك القادم من بعيد. تلك الليلة تقول لنا: (إن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه؟

فقلن: ما معنا إلا الماء.

فقال رســـول الله ﷺ: «مـــن يضم، أو يضيف هذا؟» فقال رجـــل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رســـول اللـــه ﷺ. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيئي طعامك، وأصبحي[3] سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً.

---

(١) سكنوا.

(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

(٣) أي أوقدي مصباحك وأشعليه.

فهيـأت طعامها، وأصبحت سـراجها، ونومـت صبيانها، ثم قامـت كأنها تصلح سـراجها، فأطفأته، فجعـلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويـين[1]. فلما أصبحا غدا إلى رسـول اللـه ﷺ فقال ﷺ: ضحك اللـه الليلة، أو عجب[2] مـن فعالكما! فأنزل اللـه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ [3]﴾[4].

ضحـك الله وعجب من بيت من بيوت الأنصار.. ليس فيه سـوى طعام الصغار.. ليس فيه سـوى الإيمان والكرم.. أي شيء حزته أيها الأنصاري أنت وزوجتك الكريمة! أي شـيء فعلتمـاه بأخيكما وأي كـرم كان هناك عندما ردد الأنصار: يا رسـول الله: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5].

عرق السنين، وحصاد العمر والجهد يبذله الأنصار كالماء البارد.. كالبسمة العذبة لإخوانهـم المهاجريـن. من يلوم الدنيا في حب الأنصار.. مـن يلوم المهاجرين في حب الأنصار.. من يلومه ﷺ عندما يعلن حبه للأنصار على الطرقات.. على النساء، وعلى أطفال كالزهور؟

ذات يوم (جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ.. ومعها صبي لها، فكلمها رسـول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي... والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي»)[6].

يا طيبة.. يا عاشـقة الأنبياء والمرسلين.. يا حاضنة الوحي والمهاجرين.. يا أرض الأناشـيد والنخيل.. حاصرت القادمين بحبك حتى استسلموا، فأعلنوه من أعماقهم. هـا هو ﷺ ذات يوم جميل جالسٌ على دروب أطفـال الأنصار فلم يصبر.. قام معلناً

---

(١) جائعين.

(٢) ضحك الله وعجب ضحكاً وعجباً يليق بجلال الله وعظمته ليس كضحك المخلوق ولا كعجب المخلوق وليس كمثله شـيء... نؤمن به ونسـلم كماء جاء من عند الله ورسوله وصدق الله ورسوله... فالله ليس كمخلوقاته وصفاته ليست كصفات مخلوقاته.

(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥)حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٦.

(٦)حديث صحيح. رواه البخاري ٣٧٨٥.

حبه.. حباً رآه أنس ورواه فقال: (رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين - حسبت أنه قال من عرس[1] - فقام النبي ﷺ ممثلاً[2] فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي..

اللهم أنتم من أحب الناس إلي»[3].

إن بهجة النساء والأطفال والسامعين بما قاله ﷺ تفوق بهجتهم بذلك العرس وأفراحه، وإنهم والله ليستحقون هذا الحب، فالذي فعلوه لم يفعله أحد قبلهم، ولم يفعله أحد بعدهم. لقد تمادى حب الأنصار وتجاوز الكرم.. لقد تمادوا إلى حد (اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين)[4].

تألق الأنصار فأوقفوا شمس التاريخ ونقشوا عليها، ثم تركوها تنطلق للأجيال.. أوقفوا شمس التاريخ عندما توجهوا إليه ﷺ بقلوب كالسحاب، فأمطروه بقولهم: (اقسم بيننا وبينهم النخل)[5] لكن النبي ﷺ لم يكن بالانتهازي، ولا يحب لصحابته أن يكونوا كذلك.. كان ﷺ يربي الأمة ويلهم الأجيال.. كان يريد أمة حية تنبض بالحركة والمسير إلى لا حدود. أدرك الأنصار ذلك فـ (قالوا: يكفوننا المئونة ويشركوننا في الثمر. قالوا: سمعنا وأطعنا)[6].

وبدأ المهاجرون بالعمل، وهوت سواعدهم كالحديد تشق الأرض.. تحرثها وتقطف، وبدأ المهاجرون والأنصار صفاً واحداً.. صفاً يشكل ملامح الدولة الجديدة.. دولة تنهض نحو السماء والأرض، بعد أن تشعبت جذورها في القلوب وفي المدينة.. الجميع يبتهجون بذلك.. الجميع إلا قلوباً يحرقها ما يحدث حولها فهي حانقة دائماً.

---

(١) الذي قال: حسبت ليس أنس ولكنه أحد الرواة عنه.

(٢) أي مكلفاً نفسه... وجاء في رواية (ممتناً).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٣٧٩، لكن الذي في البخاري: ثلاث مرار.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٣٩٢٩ بلفظ: قرعت.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري ٧٧٤.

(٦)حديث صحيح. رواه البخاري (٧٧٤).